الرسالة

(١ كورنثوس ٦: ١٢–٢٠)

يا إخوةُ كلُّ شيءٍ مباحٌ لي ولكن ليس كلُّ شيءٍ يوافِق* كلُّ شيءٍ مُباحٌ لي ولكن لا يتسلَّطُ عليَّ شيءٌ* إنَّ الأطعمةَ للجوفِ والجوفَ للأطعمةِ وسيُبيدُ اللهُ هذا وتلك. أمَّا الجسدُ فليس للزِنى بل للربِّ والربُّ للجسد* واللهُ قد أقامَ الربَّ وسيُقيمُنا نحن أيضاً بقوَّتِه* أمَا تعلَمون أنَّ أجسادَكم هي أعضاءُ المسيح. أفآخذُ أعضاءَ المسيحِ وأجعلُها أعضاءَ زانيةٍ. حاشى* أمَا تعلمون أنَّ مَن اقترن بزانيةٍ يصيرُ معها جسداً واحداً. لأنَّه قد قيلَ يصيرانِ كِلاهما جسداً واحداً* أمَّا الذي يقترنُ بالربِّ فيكونُ معه روحاً واحداً* أهرُبوا من الزنى. فإنَّ كلَّ خطيئةٍ يفعلُها الإنسانُ هي في خارجِ الجسد. أمَّا الزاني فإنَّه يُخطىءُ إلى جسدِه* أم ألستُم تعلمونَ أنَّ أجسادكم هي هيكلُ الروحِ القدسِ الذي فيكم الذي نِلتموهُ من الله وأنَّكم لستم لأنفسكم*

الرجوع إلى النفس

«فذهب وانضوى إلى واحدٍ من أهلِ ذلك البلد فأرسله إلى حقوله يرعى خنازير. وكان يشتهي أن يملأ بطنهُ من الخرنوبِ الذي كانتِ الخنازيرُ تأكُلُه فلم يُعطِه أحدٌ. فرجع إلى نفسِه وقال كم لأبي من أُجَراءَ يَفضُلُ عنهم الخبزُ وأنا أهلِكُ جوعاً. أقوم وأمضي إلى أبي وأقول له يا أبتِ قد أخطأتُ إلى السماءِ وأمامك ولستُ مستحقًّا بعدُ أن أُدعى لك ابناً فاجعلني كأحدِ أُجَرائِك» (لوقا ١٥: ١٥–١٩).

تختلط القيم الأخلاقية والإنسانية في أيامنا. مفهوم الحرية عند الناس بات غير واضح المعالم ولا ضوابط له. يرى الكثيرون أن الدين يحمّل الإنسان أعباء منها الموانع والنواهي ومنها مفهوم الخطيئة وما يستتبعه من شعور بالذنب يثقل كاهل الإنسان ويتعب حياته. ويبنون هذا الرأي على كون بعض علماء النفس يصفون شعورَ الإنسان بالذنب بأنه نوع من الاضطراب العصبي أو النفسي الذي يؤدّي تدريجيًّا بصاحبه الى التراجع والتدهور. أو أنه يضايقه بمقدار يحدّ من إنتاجيته الفكريّة والعمليّة بحيث يفقد فاعليته في مجتمع يقوم على التنافس في الإنتاج والاستهلاك.

لكن آباء الكنيسة يوضحون أن الموضوع يختلف بالكلّية عن هذا الطرح. فحالة الشعور بالذنب المَرَضي الناتجة عن كبت أو عُقَد لدى الإنسان، تختلف بالكلّية عن الإدراك الواعي للخطيئة الذي عبّر عنه داود في مزموره الخمسين «لأني أنا عارف بإثمي وخطيئتي أمامي في كل حين»، والذي يتأتّى من شفافيّة أو بصيرة روحيّة تشبه أعين الشيروبيم الدائمة اليقظة التي تشاهد جمال الخالق وتشتاق إليه. شوق النفس هذا يولّد في الإنسان حركة. يصير فيه ديناميكيّة وإسراعًا إلى التوبة بخلاف الشعور المَرَضي بالذنب والذي ما هو إلا جمود وموت. «وعي الخطيئة»، أي هذه الحساسيّة الروحيّة التي عبّر عنها اللّص المصلوب عن يمين المسيح وزكّا العشّار حين أدرك قصر قامته فاعتلى الجميزة (لوقا ١٩)، أساسٌ هامّ لفهم الإنسان لسرّ الاعتراف بل للحياة الروحيّة كلّها.

يقول القديس إسحق السرياني: «مَنْ يعرف خطيئته خيرٌ من الذي يقيم الموتى». لا بدّ للانسان من أن يعي أن الخطيئة واقع يؤثّر على كيانه

العدد ٢٠١٥/٦
الأحد ٨ شباط
أحد الإبن الشاطر
تذكار النبي زخريا والشهيد
ثاودوروس قائد الجيش
اللحن الثاني
إنجيل السَحَر الثاني

بجملته، يشتّت قواه ويبعثر مواهبه فيصير عقيمًا لا يقوى على الدنوّ من مبدأ الحياة أي «معرفة الله» (يو ٣: ١٧) التي تعطي معنىً وهدفًا لوجودنا. فإنّ الاضطراب الحاصل في نفس الإنسان من جراء خطيئته، يؤدّي الى تشظي شخصيّة الإنسان، والتشتت في الأفكار الأثيمة، ثم إلى جمود القلب وموته روحياً. هو مرضُ مَلَكَةِ الحب في الإنسان. فالحب الإنساني، يصير بالخطيئة أنانيًّا يتجه به المرء الى نفسه عوض أن يكون معطاءً منفتحًا على الله والآخرين. فالإنسان من حيث يدري أو لا يدري يستعمل كل الأشياء بأنانيّة واستغلال.

الخطيئة تقود الإنسان الى العبث. وتجاهُل الخطيئة عبر طرحها خارج مفاهيمنا الاخلاقية يقود بدوره الى العبث. لأن الحقيقة لا يقربها الإنسان إلا بفحص صادق للذات على أساس وصايا الله. فوعي الخطيئة هو قبل أي شيء عودة الى حيّز الواقع، أي استدراك النفس التائهة في التخيلات لحالها المتدهورة. هذا ما يسمّى في قاموس آباء الكنيسة «يقظة روحية» أي معرفة الإنسان لحاله، وسهره على معالجة الاعوجاج فيها، والمحاولة الجادة منه للتمسك بهذا الوعي وما يصحبه من مسعى جاد.

لذا كل تطبيق شكلي لطقوس سر الاعتراف يبقى عديم الجدوى إذا لم يسبقه أو يصحبه نزوعُ النفس الأصيل الى تبديل ما فيها من قباحة تؤذي علاقتها بالمسيح. شعورنا بالحاجة الى التوبة هو الأساس لسرّ الاعتراف. ولا اعتراف من غير توبة. لأن الاعتراف تكميل لما في النفس من ندامة وحزن مغبوط وشوق الى الله. الله يجتذب الإنسان بنعمته الى التوبة. والتوبة تقتاد الإنسان بنعمة الله إلى الاعتراف. والاعتراف يؤول بالإنسان الى مغفرة الخطايا. وما المغفرة إلاّ بدايةً للنمو الروحي.

نحن لا نعترف لنفي دَيْناً لله، بل لنكسر الحواجز الدهريّة القائمة في دربنا نحو وحدتنا مع المسيح. نعترف لنعبّر لله عن تعلّقنا به، وعن حاجتنا الى نعمته الشافية، وعن رغبتنا في الانفتاح له والاتحاد بشخصه.

كم هو غريب هذا الأمر الذي يختبره المؤمنون في اعترافهم! فإنهم في لقاء مع أب روحي يتمكّنون من التخلّص من كل اضطراب أو توتر من شأنه أن يعرقل مسيرة حياتهم. بينما ترى الناس في المجتمع يصرفون الساعات والأشهر في التردّد الى الأطباء النفسيين، ويعلّلون النفس بالآمال، ويدفعون المبالغ الطائلة دون أن يحصلوا على أي نتيجة جدية تذكر. أما في أسرار الكنيسة فالأمر يختلف بالكلية. الكنيسة تصرّ على معالجة المشكلة من جذورها. وهذا يتطلب في طبيعة الحال مرشداً روحياً ذا خبرة وليس أي إنسان. لأن الوعي الروحي المصحوب بالجهاد الحقيقي هو السبيل الى تمييز طبيعة الهوى أو مصدر التشويش في النفس ومعالجته بما يوافقه. والخبرة الأرثوذكسية في أن الإنسان يتخذ مرشدًا يصير له أبًا روحيًّا فريدةٌ في العالم المسيحي. فهي ليست مجالاً لتخطي الإنسان لكل ذاتية في الحكم في الأمور الروحية فحسب، بل إن المسيحي، كما يوضح القديس سمعان اللاهوتي، يجد في شخص الأب الروحي من يسير أمامه ممسكًا بيده ليمهّد له السبيل «الى ينبوع المياه الحقيقي ليغسل فيه وجهه ويرحض كل أثر للادناس».

لأنَّكم قد اشتُريتم بثمنٍ فمجّدوا اللهَ في أجسادِكم وفي أرواحِكم التي هي لله.

الإنجيل

(لوقا ١٥: ١١–٣٢)

قال الربُّ هذا المَثَل: إنسانٌ كان له إبنان* فقال أصغرُهما لأبيهِ يا أبتِ أعطِني النصيبَ الذي يخُصُّني من المال. فقَسَمَ بينهما معيشتَهُ* وبعد أيامٍ غيرِ كثيرةٍ جمَعَ الإبنُ الأصغرُ كلَّ شيءٍ له وسافرَ إلى بلدٍ بعيدٍ وبذَّرَ مالَهُ هناك عائشاً في الخلاعة* فلمَّا أنْفقَ كلَّ شيءٍ له حدثَت في ذلك البلدِ مجاعةٌ شديدةٌ فأخذ في العَوَزِ* فذهب وانضوى إلى واحدٍ من أهلِ ذلك البلدِ فأرسلَهُ إلى حقولِه يرعى خنازيرَ* وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانتِ الخنازيرُ تأكلُه فلم يُعطِهِ أحدٌ* فرجع إلى نفسِه وقال كم لأبي من أُجَراءَ يَفْضُلُ عنهم الخبزُ وأنا أهلِكُ جوعاً* أقوم وأمضي إلى أبي وأقولُ له يا أبتِ قد أخطأتُ إلى السماءِ وأمامك. ولستُ مستحقًّا بعدُ أن أُدعى لك ابناً فاجعلني كأحدِ أُجرائك* فقام وجاء إلى أبيهِ. وفيما هو بعدُ غيُر

بعيدٍ رآهُ أبوه فتحنَّنَ عليهِ وأسرع وألقى بنفسِه على عنقهِ وقبَّله* فقال له الإبنُ يا أبتِ قد أخطأتُ إلى السماءِ وأمامك ولست مستحِقًّا بعدُ أن أدعى لك ابناً* فقال الأبُ لعبيدهِ هاتوا الحُلَّة الأولى وألبسوه واجعلوا خاتَماً في يدهِ وحذاءً في رجلَيهِ* وأْتوا بالعِجْلِ المسمَّنِ واذبحوه فنأكُل ونفرَح* لأنَّ ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالًا فوُجد. فطفِقوا يفرحون* وكان ابنُه الأكبرُ في الحقل. فلمَّا أتى وقرُبَ من البيتِ سمعَ أصواتَ الغناءِ والرقص* فدعا أحد الغِلمانِ وسألَهُ ما هذا* فقال لهُ قد قدِمَ أخوك فذبحَ أبوك العجلَ المسمَّنَ لأنَّه لقيَهُ سالماً* فغضبَ ولم يُرِدْ أن يدخلَ. فخرجَ أبوهُ وطفِقَ يتوسَّلُ إليه* فأجابَ وقالَ لأبيهِ كم لي مِنَ السنين أخْدِمُكَ ولم أتَعَدَّ لك وصيةَ قطُّ وأنت لم تُعطِني قطُّ جَدياً لأفرحَ مع أصدقائي* ولمَّا جاءَ ابنُك هذا الذي أكلَ معيشتَك مع الزواني ذبحتَ له العِجلَ المسمَّن* فقال لهُ يا ابني أنت معي في كلّ حينٍ وكلُّ ما هو لي فهو لك* ولكن كان ينبغي أن نفرحَ ونُسَرَّ لأنَّ أخاك هذا كان ميّتاً فعاشَ وكان ضالاً فوُجد.

المسيحي المؤمن يتخذ في الاعتراف قوة من العلاء ليحب الله والإخوة. في هذه المحبة يجد قدرةً على العطاء والخدمة واحتمال كل شيء (١كور ١٣: ٧). وقد يتقدّس إن استغرق في التّحاب مع المسيح.

صلاة السَحَر

لاهوت صلاة السَحَر:

بعد أن تعرّفنا في العدد الماضي على لاهوت صلاة السَحَر على صعيد الخلق والتدبير الخلاصي، نصل اليوم إلى البُعد أو الصعيد الشخصي لصلاة السَحَر.

الصعيد الشخصي:

في المجال الشخصي التقديسي نحن نشكر الله في صلاة السحر لأنّه أهّلنا لأن نجوز مسافة الليل بلا خطيئة ولا عيب ومنحنا أن نرى نور يوم جديد نحياه. نشكر الله الذي خلق النور وأزال الظلمة والذي هدانا إلى نور حُسْن العبادة بإرسال ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح «الذي انتشلنا من وهدة الهلاك وظلام الخطيئة بنور قيامته المجيدة». كما نسبّحه على يوم جديد وإمكانية جديدة للعمل بوصايا الرب لكي نخلص بيسوع المسيح. «في الصباح قدّموا الشكر لأن الرب أناركم، أخذ الليل وأتى بالنهار» (كتاب الأوامر الرسولية ٨: ٣٤ / حوالى عام ٣٨٠). في صلاة السَحَر نشكر الله على كل الخيرات السابقة التي حصلنا عليها والخيرات التي نحن واثقون من أنه سينعم بها علينا.

نقف أمام الله في صلاة السَحَر ونقدّم له، قبل أي عمل دنيوي نقوم به، أولى حركات قلبنا ونفسنا وجسدنا كولادة جديدة وكقيامة. في صلاة السَحَر، كما يقول القديس باسيليوس الكبير، «نكرّس أولى حركات النفس والجسد للرب، ونرنم مع كاتب المزامير: «يا إلهي إليك أصلّي. في الصباح باكراً تسمع صوتي. وباكراً أتأهب وأنتظر» (مز ٥: ٣ـ ٤). قبل أن نقوم بأي عمل نطلب إلى الله أن يبارك خطوات حياتنا ويؤّهلنا أن نجوز مسافة النهار بلا خطيئة ولا عيب. يكتب أحد اللاهوتيين المعاصرين: «هذه الخدمة هي في الوقت ذاته تضرّعٌ من أجل تبريك أعمال أيدينا التي سنباشرها بعد قليل، ومن أجل تسديد خطواتنا». «الرب يُسيِّر خطوات الإنسان ويثبّته ويحفظه في الطريق» (مز ٣٧: ٢٣). فإذا نظمنا أمور هذه الحياة بحسب مشيئة الله، بصلاح ورضىً وكمال، وإذا عبرنا اليوم بنعمة الله، وكان يوماً مقدّساً وسلامياً وبلا خطيئة، سيكون هذا اليوم نموذجاً لذلك اليوم الأبدي الذي لا نهاية له والذي لا يعتريه ليل، يوم ملكوت الله، اليوم «الثامن للدهر الآتي كما يسمّيه الآباء».

وكما صلّينا في صلاة الغروب كي يكون مساؤنا كله مقدساً، سلامياً وبلا خطيئة، وتضرّعنا إلى الرب أن يحفظنا «في كل حين، وفي المساء الحاضر والليل المقبل مصونين من كل فعل مضاد شيطاني ومن الأفكار الباطلة والهواجس الخبيثة»، هكذا أيضاً في صلاة السحر نصلّي إلى الرب: «أقصِ كل قتام من قلوبنا، وهَبْ لنا شمس العدل، واحفظ حياتنا سالمة من الأذى بختم روحك القدوس...» و«... أشرق في قلوبنا شمس بِرّك الحقيقية، وأنر عقولنا، واحفظ حواسنا كلها، حتى إذا سلكنا في

سبيل وصاياك سلوكاً لائقاً كأننا في النهار، نبلغ الحياة الأبدية لأن ينبوع الحياة عندك، ونستحق التمتع بالنور الذي لا يدنى منه» (من أفاشين صلاة السحر).

انطلاقاً من هذا الكلام يشكّل كل صباح انطلاقة يوم جديد نعمل فيه ببركة الله ونتهيأ لمجيئه الثاني المجيد من خلال أعمالنا التي تعكس إيماننا بالرب يسوع. في هذا الإطار يشبّه القديس يوحنا السلّمي صلاة الصبح بدعوة صاحب الكرم للفعلة من أجل العمل في كرمه منذ الصباح الباكر (متى ٢٠). في هذا المَثَل الذي هو من أمثلة الملكوت، إن الذي خرج وعمل منذ الصباح الباكر، منذ الساعة الأولى، ضمن باكراً أجره، وفي هذه الحال الأجر هو الدخول إلى ملكوت السموات. أما القديس يوحنا الذهبي الفم فيقول: «إن المسيحيين في الصباح يسجدون على ركبهم ويشكرون الله محور ترانيمهم ... وبعد الوقوف والإنتهاء من الصلوات المقدسة، وقد أشرقت الشمس، يخرجون إلى العالم ويجمعون مؤونة لمساعدة المحتاجين». أعمال الإنسان في النهار يجب أن تعكس الإيمان بالإله الذي سبّحه هذا الإنسان في السَحَر، وهكذا يتهيأ للملكوت.

أخيراً، في صلاة السَحَر نحن مدعوون أن نكون مثل الملائكة الذين يسبّحون الله على الدوام. منذ الصباح الباكر نرنّم مع الملائكة «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام» في بداية خدمة السَحَر ونهايتها، ونرنّم «كل نسمة فلتسبّح الرب، سبّحوا الله في قدّيسيه، سبّحوه في فلك قوّته...». كل ذلك على رجاء أن تكون كل تصرفاتنا وأعمالنا في النهار المقبل علينا بحسب تعاليم الله ووصاياه فنكون كالملائكة نسبّح الله من خلال تعاطينا مع الآخرين.

من أقوال الآباء

طوبى لمن يعرف ضعفه، لأن هذه المعرفة تصبح أساساً وجذراً وبداية لكل صلاح. فعندما يعلم أحد بضعفه ويحس به إحساساً حقيقياً، يضبط نفسه ويشد ارتخاءها، ويجعل لنفسه حصناً منيعاً. لا يقدر أحد أن يحس بضعفه ما لم يُسمح له أن يُجرَّب وإذ يقارن معونة الله بضعفه يدرك عظمتها. أما إذا رأى أن أساليبه ووقايته وإمساكه لنفسه وحفظها لا تعطيه الثقة، أو أن قلبه ليس فيه سلام بسبب الخوف والرعب، فليعلم أن هذا دليل حاجته إلى معين آخر. لأن قلبه يدل على وجود خوف يصارعه في الداخل ويشير إلى نقص فيه يدل على أنه لا يقدر أن يعيش وحده بثقة، فمعونة الله هي التي تخلّصه (مز ١٢٠: ٢). فإذا أدرك الإنسان أنه يحتاج إلى المعونة الإلهية عليه أن يضاعف صلواته. وبمقدار ما يضاعفها يزداد قلبه تواضعاً. ما دام القلب فاقداً التواضع لا يمكنه أن يتوقف عن التشتت، لأن التواضع يضبط القلب. عندما يصبح الإنسان متواضعاً تحيط به الرحمة حالاً، ويحس قلبه بالمعونة الإلهية، لأنه يجد قوة مليئة بالثقة تتحرك فيه.

القديس إسحق السرياني

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

تأمل

عندما نعرف أنّ أبانا السماوي، الراعي الصالح، لا يحتقرنا عندما نعود إليه، بل يقبلنا برغبة وحنان كبَيرين أكثر من أولئك الذين يقتنون الفضيلة، عالمين أنّه لا يُعاقب الضّالين، بل يخرج للبحث عنهم ويفرح لأجلهم عندما يجدهم أكثر من الذين هم بقربه، يجب ألاّ نيأس عندما نكون في الخطيئة، كما أنّه يجب ألاّ نتجرّأ عندما نفعل الخير. لكن عندما نخطئ يجب أن نتوب، وعندما نمارس الفضيلة فلننتبه ألاّ نسقط، لأنّ الإثنين خيانة لخلاصنا، أي أن نتجرّأ عندما نكون في طريق الفضيلة، وكذلك أن نيأس عندما نسقط في الخطيئة.

إذاً، «اليوم» ومهما تدوم حياتنا الحاضرة يجب ألّا نيأس. عندما نضع رجاءنا على الرب، ونعرف محبته للبشر اللّامتناهية، لنطرح عنّا كلّ إثم برغبة، ولنتمسّك بالفضيلة ولنُظهر توبةً لامتناهية، ولنتطهّر ههنا من خطايانا كلّها لكي نستطيع بشجاعة أن نقف أمام منبر المسيح الرّهيب بدالّة وندخل إلى ملكوت السموات بنعمة إلهنا.

القديس يوحنا الذهبي الفم